الفصل السَّادس

الذاكرة..تقويمها، وقياسها

حين تُسترجع الذكريات، كيف تُقاس وتُقدَّر؟ يوافق معظم علماء النفس والمختصين بالذاكرة علي أنَّ هناك بعض التفاوت والاختلاف بين المُثيرات الداخلة Input، والمُثيرات الخارجةOutput التي جري تقريرها وذكرها٠ وقد عمل العلماء علي قياس هذا الاختلاف والتفاوت من خلال بُعدين:

الأوَّل: كمال الذاكرة.

الثاني: الصحَّة أو الدقة النسبية للذاكرة.

وسوف نقوم بشرح كُلّ من هذين البُعدين، شرحاً تفصيليًّا علي الصفحات التالية:

أوَّلاً: مقياس كمال الذاكرة :

كمال الذاكرة يعني: قياس الكمية الكُلّية للمعلومات أو المُثيرات التي يجري تذكُّرها وتقريرها أثناء القياس والاختبار. وبالنسبة إلي المواد البسيطة نسبياً،مثل: المقاطع عديمة المعني، فقد قاس «إبنجهاوس» اكتمال الذاكرة وفق مصطلح التوفير (الحفظ) Saving، أي كمية المواد المُتعلَّمة من المقاطع عديمة المعني،التي تُستخرج في زمن القياس٠

وفي التجارب التي تستعمل سلسلة من الأحرف، يكون القياس النموذجي عن طريق تقدير النسبة المئوية من الأحرف التي جري التعرُّف عليه وتذكُّرها بدقةٍ٠

أمَّا الأحداث المُعقَّدة، كتلك التي تعرض شريطاً لحدثٍ ما لمدة ثانيتين تُقسَّم إلي عدد من التفصيلات ٠وفيها يُقاس «كمال الذاكرة» وفقاً لمعيار «ديفنبشر» Devenbacher الذي يُقابل ٧٠٪ باعتباره الخط الأساس والقاعدي (النسبة المفترضة) الذي يدل علي دقة الذاكرة والتعرُّف.

وهكذا يمكن للمفحوص أن يتذكَّر ما يقرب من٧٠٪ من تفصيلاته بدقةٍ تامة٠ وحين يتذكَّر المفحوص نسبة أقل من ذلك، فإنَّنا نعتبر ذاكرته غير كاملة٠ Incomplete أمَّا إذا استطاع أن يتذكَّر نسبة أعلي من ذلك، فإنَّنا نعتبر ذاكرته كاملة نسبياً٠ Relatively Complete

ومصطلح « كمال الذاكرة » يرتبط بشكُلّ وثيق بمفاهيم «فقدان الذاكرة» Amnesia، و«حِدة الذاكرة» Hypermnesia ٠وهكذا فبالاستناد إلي الخط القاعدي (النسبة المفترضة) التي يجب أن يتذكَّرها فإن المصابين بفقدان الذاكرة (بمَنْ فيهم الذين تعرَّضوا لصدماتٍ مُعيَّنة) سيكون تذكُّرهم أقل بكثير من العاديين، كما أنَّهم سيتذكرون معلومات وأحداثاً أقل (سواء أكانت زمنية أو مكانية)، وإذا لم يستطيعوا تذكُّر شيء من المعلومات التي يجب عليهم تذكُّرها، فإنَّهم يُعانون فقدان ذاكرة حاداً وشديداً٠

إلاَّ أنَّه تحت بعض الظروف، كما هي الحال حين التعرُّض للإثارة الانفعاليَّة الشديدة، يمكن للشخص أن يُظهر حِدة الذاكرة، بحيث يتذكَّر معلومات وتفصيلات تفوق ما يتذكَّره في الظروف العادية٠

المفهوم الآخر المرتبط بـ « كمال الذاكرة »، أو عدم كمالها هو: «خطأ الحذف»Omission Error في قياس الذاكرة وتقديرها٠ ويحدث خطأ الحذف عندما يفشل المفحوص في تذكُّر تقرير معلومات مستهدفة مطلوبة خلال قياس الذاكرة٠ وفشل الذاكرة يمكن قياسه وتقديره عن طريق «خطأ الحذف» لهدف وحيد (معلومة) ضمن حدث مُعقَّد، أو عن طريق العدد الكُلّي لأخطاء الحذف التي ارتكبت، مثل حساب عدد المواد المطلوبة المستهدفة التي حذفت بالنسبة إلي العدد الإجمالي للمواد التي يضمها الحدث المُعقَّد بكامله، أي نسبة المواد أو المعلومات المحذوفة إلي العدد الكُلّي لمواد الحدث ومعلوماته٠

إنَّ المشكلة التي نواجهها حين نعتمد هذه الطريقة، أي قياس «كمال الذاكرة»، هي الفشل في تعيين التفاعُّل المُعقَّد بين ذاكرة المعلومات الكُلّية الأصلية، ونوع المعلومات التي يجب تذكُّرها، والتفصيلات المهملة في هذه المعلومات.

بكلمة أُخري، قد تبدو الذاكرة عرضة للخطأ أكثر ممَّا هي في الواقع، فقط لأنَّ ذاكرة الكمية الكُّية للمعلومات الأصلية استعملت كنتيجة أو محصلة للقياس، بغض النظر عن نوع المعلومات أو أهمية التفصيلات٠

يمكننا القول إذاً، إن اكتمال الذاكرة أو عدم اكتمالها بالنسبة إلي الأحداث المُركَّبة، سيعتمد بدرجة كبيرة علي مظاهر المعلومات ونوعها التي يجب علي المفحوص أن يتذكَّرها، فإذا طلبنا من عددٍ من المفحوصين أن يتذكروا كُلّ شيء عن الحادثة أو الواقعة، كما هي في بحوث الذاكرة، عندها سيكون ما يجب أن يتذكره المفحوص أقل بكثيرٍ وغير كاملٍ، وستبدو الذاكرة في هذه الحالة عرضة للخطأ٠

أمَّا إذا طلبنا منه أن يتذكَّر فقط التفصيلات المهمة والبارزة، عندها سيكون اكتمال الذاكرة أو عدم اكتمالها، بالاعتماد علي نوع التفصيلات أو أهمية المعلومات٠أمَّا إذا كنا نسأل المفحوص عن نتائج بارزة في الفعل أو تفصيلات مُحدَّدة في الواقع، عندها ستكون الذاكرة أقل خطأ٠

ثانيًا: مقياس دقة الذاكرة وصحَّتها:

يرجع مصطلح «دقة الذاكرة» Memory Accuracy إلي تحديد ما إذا كانت المعلومات المُتذكَّرة (الخارجة)، أي التي اُستُرجعت، تتناسب والمُثيرات الأصلية (الداخلة)، وتتفق معها فعلاً٠

وبالنسبة إلي المواد البسيطة والمفردة، كالمقاطع عديمة المعني، إمَّا أن تكون الدقة كاملة، وإمَّا لا تكون، فالمفحوص إمَّا أن يتذكَّر المقطع وإمَّا لا يتذكره أبداً٠

وبالنسبة إلي الوقائع والأحداث المُركَّبة، كمشاهدة وقائع معروضة علي شريط فيديو، مثل حادث سيارة، فتُقاس الدقة عن طريق عدد المواد التي يتذكَّرها الشخص، والتي تكون متفقة مع المواد الأصلية للحادثة، أمَّا عدم الدقة فيُقاس في ضوء عدد المواد التي يتذكَّرها، والتي تختلف أو لا تتفق مع المواد الأصلية للحادث٠

يرتبط مفهوم «دقة الذاكرة» بمفهوم آخر وثيق الصلة به، وهو «أخطاء التفويض أو التكليف» ٠Commission Errors ويُشير هذا الخطأ إلي أنَّ المواد التي يجري تذكُّرها لا تنسجم، أو تنسجم جزئياً مع التفصيلات الأصلية، فبالنسبة إلي المُثيرات أو المعلومات البسيطة تظهر أخطاء التكليف علي شكل عدم تجانس وعدم اتفاق (أي حذف أو افتقاد كامل)٠

أمَّا بالنسبة إلي المُثيرات أو المعلومات الأكثر تعقيداً، فقد يظهر خطأ التكليف علي شكل تجانس وتطابق جزئي، مع المُثيرات والمواد الأصلية، وتبقي هناك بعض المعلومات التي تتفق مع المواد الأصلية يُقرِّرها المفحوص ويتذكَّرها، وقد تمَّ تفسير هذا التحريف أو التشويه علي أنَّه: مزج مواد الذاكرة ودمجها، وإدخال مواد وحذف مواد٠

علينا أن نفهم إن اكتمال الذاكرة، ودقتها ليسا مربكين، فالاكتمال والدقة مقياسان مستقلان لأداء الذاكرة، فيمكن لذاكرةٍ ما أن تكون غير كاملة، ولكنَّها تتمتَّع بدرجةٍ عاليةٍ من الدقة، كما هي الحال في ذاكرة الأطفال الكبار٠ويمكن لذاكرةٍ ما أن تكون كاملة تماماً، ولكنَّها ليست دقيقة.

● مقاييس أو أبعاد أخري في تقدير أداء الذاكرة:

هناك عددٌ آخر من الأبعاد التي نعتمد عليها في تقدير أداء الذاكرة، وقد حدَّد العلماء المختصون ثلاثة من هذه الأبعاد التي يمكن أن يستعملها الأفراد أو المفحوصون بمفردهم، باعتبارها معايير لقياس عمل ذاكرتهم، سوف نُلفي عليها الضوء علي الصفحات التالية:

أولاً: حيوية الذاكرة ونشاطها:

يُشير مصطلح «الحيوية والنشاط» Vividness إلي غني Richness ، وإتقان Elaboration تفصيلات الذاكرة ٠والحيوية ليست مترادفة لدقة الذاكرة٠ففي الواقع هما متداخلان ومتفاعلان بشكل مُعقَّد٠فالمفحوص يستدعي خبراته الشخصيَّة بتفصيلاتٍ غنيةٍ، ويتذكَّرها كما لو أنَّه يراها أمامه بوضوحٍ، وهذا لا يعني أنّ! ذاكرته تتصف بالدقة.

ثانيًا: الحالة الانفعاليَّة المرتبطة بالذاكرة :

يُشير مفهوم «الانفعاليَّة» Emotionality إلي شدة الانفعال المُرافق للذاكرة وتكافئه معها (سواء أكان الانفعال سار أم غير سار)، فحين يستدعي المفحوصون ذكريات شخصية، يُساء تفسير الانفعاليَّة غالباً علي أنَّها مؤشر إلي عدم دقة الذاكرة.

وكذلك الأمر هنا، فالانفعاليَّة مرتبطة بالدقة بطريقة مُعقَّدة حيث إن الانفعاليَّة تُعتبر مؤشراً جيداً إلي دقة الذاكرة في ظل بعض الظروف، وأقل دقة في ظل ظروف أخري.

ويبدو أنَّه لا توجد علاقة بين الانفعاليَّة والدقة، ضمن شروط أو ظروف مُحدَّدة، وفوق كُلّ ذلك، لا يمكن الافتراض أنَّ الذكريات الشخصيَّة التي جري استدعاؤها دقيقة وصحيحة، فقط، لأنَّ استدعاءها قد خضع للحالة الانفعاليَّة المُرافقة.

ثالثًا: الثقة بالذاكرة :

الثقة Confidence بالذاكرة، فتدل علي الدرجة التي يعتقد فيها المفحوص أو الشخص بما يُقرِّره أو يتذكَّره علي أنَّه صحيح ودقيق، وقد أكَّد بعض العلماء أنَّ هناك علاقة وثيقة ومُعقَّدة بين الثقة والدقة، فحين يتم تقابُّل الدقة والثقة، نجد أنفسنا أمام أربعة تفسيرات مُحتملة:

- الدقة العالية، تُرافقها ثقة عالية٠
- الدقة العالية، تُرافقها ثقة منخفضة٠
- الدقة المنخفضة، تُرافقها ثقة عالية٠
- الدقة المنخفضة، تُرافقها ثقة منخفضة٠

يبدو بوضوح، من خلال هذا التصنيف التقابلي، أنَّنا لا نستطيع الافتراض بأن الثقة تتضمَّن الدقة٠ ومع أن الذكريات والموضوعات التي يثق فيها المفحوص كثيراً، هي دلالة علي الدقة، إلاَّ أنَّها تحمل إمكان عدم الدقة أيضاً٠

إنَّ الشخص العادي في الحياة اليومية، يعتبر الحيوية (حيوية المعلومات التي يسترجعها) والانفعاليَّة المُرافقة لها، والثقة بها، علي أنَّها جميعها مؤشرات تدل علي دقة الذاكرة . ومع أنَّ هذه العوامل يمكنها أن تتضمَّن الدقة إلاَّ أنَّها تحمل إمكان عدم الدقة أيضاً.

إنَّ المرضي والمُعالجين يسيئون تفسير الحيوية والثقة الانفعاليَّة، مُعتبرين أنَّها دليل علي دقة الذاكرة، وأنَّ الذاكرة التي عولجت من الصَّدمة هي دقيقة وصحيحة٠ ومع أنَّ هذه الأبعاد المُرتبطة بالدقة ــ بالنسبة إلي الذاكرة التي تمت مُعالجتها ــ فقد تقود المريض خطأ، إلي الاعتقاد بأنَّ ذكرياته عن وقائع تاريخية، غير دقيقة٠

ولقد لخص عالما النفس « سبيجل» Spiegel ، و «شيفلين» Shefflin المعضلة المتناقضة شكلاً في دراسة الذاكرة، والتي لها تطبيقات جوهرية ومهمة لدي كُلّ الباحثين، والمُعالجين.. وغيرهم ــ من جهةٍ أولي ــ وكما يوافق عليه جميع الباحثين في الذاكرة:

١. إن كمية التفصيلات في الذاكرة ليست ضماناً لدقتها٠

٢. إن غني التفصيلات في الذاكرة ليست ضماناً لدقتها أيضاً٠

٣. الوضوح والحيوية في الذاكرة ليست ضماناً لدقتها٠

٤. الحالة الانفعاليَّة التي تضمها الذاكرة، ليست ضماناً علي دقتها٠

٥. ثباتها واستمرارها عبر الزمن ليست ضماناً علي دقتها٠

٦. الثقة بالنفس ليست ضماناً علي دقتها٠

٧. حقيقة أن الشخص معروف بأنَّه صادق ليست ضماناً علي دقة الذاكرة٠

٨. حقيقة أن الشخص له مكانة مرموقة وسمعة حسنة بأنَّه يملك ذاكرة جيدة ليست ضماناً علي دقة الذاكرة٠

مـن جهـةٍ ثانيـةٍ، فـإن مـن غيـر المنطقـي بالنسـبة إلـي الذاكـرة التـي تملـك تفصيـلات كاذبـة، أن نسـتنتج ونحكـم بأنَّهـا لا تملـك وقائـع أو أحداثـاً حقيقيـة، أو أنَّهـا غيـر دقيقـة، حتـى لـو تبيَّـن أن الذاكـرة غيـر دقيقـة، إن هـذا لا يُبرهـن علـي أن الحـدث أو الواقعـة لـم تحصـل.